إضاءة

في الوقت الذي تشهد فيه «جامعة كولومبيا» اكبرَ موجة احتجاج ضدّ جرائم الإبادة في فلسطين، تقف رئيستها، «ابنة الإسكندرية»، في المكان ذاته الذي اضفى فيه إدوارد سعيد عمره، لتُمثّل ما نقدّه بالضبط من معرفة مُسخَّرة لخدمة الاستعمار

يوسف الدموكي

في صَرْح علميٍّ كبير عرفت أروقتُه مجموعة من أهم المفكّرين في العالم، نتذكر في السياق العربي إدوارد سعيد، الذي بُحَّ صوته طوال عقود من الدراسة والتدريس في «جامعة كولومبيا» ناقدًا للثقافة بمعناها الغربي، التي ترشح الهُوّة الكبيرة بين الإنسانيّ؛ إنسان الرجل الأبيض، والإنسان «الآخر» الذي يستعبده ذلك الإنسان الأول، وينظر إلى ثقافته شزرًا، وإلى وجوده باشمئزاز، ويحصر تاريخه وهويته وحضارته وثقافته وتنوّعه في قالب واحد، لا يكاد يخرج عن الأفلام الهوليوودية المُبتذلة، التي تُصوّره حيوانًا بشريًا جعجاعًا يعيش في الصحراء، يتزوّج عشرين امرأة بدافع الهياج الجنسيّ، ويفتقر إلى أدنى درجات التطور والعيش الكريم، والنظافة الشخصية والعقلية.

ذلك النموذج تمامًا، الذي يرغب الرجل الأبيض في استعباده بشراهة، أسوأ منه ذلك الرجل الأسود الخانع، كما صوّره فيلم «Django Unchained»، في شخصية رئيس الخدم، الذي كان أحقر من سيده، وأشرس ضدّ أبناء جلدته، حاقدًا على من يتنفّس منهم بشيء غير عبوديته، حقيرًا ذليلًا لا يرى إلّا ما أُريد له أن يرى، بل وينافس نفسه باستعداده ألّا يرى أصلًا، فيُساق كالأعمى، فداءً لحذاء السيّد النبيل. لكن ذلك الفيلم - على قسوته الواقعية - في رواية تاريخ العبودية، لم يصل إلى ذلك الواقع السوداوي بعد نحو ستة عشر عقدًا من المرسوم الذي وقّعه ابراهام لنكولن «تحرير العبيد» في الولايات المتحدة، فها هي السيّدة نعمت شفيق، الأميركية النخبوية أكثر من النخبة الأميركية المُترهّلة نفسها، ترى أولئك الطلّاب الذين يُنادون بحرّية «مدينة ما» في «الشرق الأوسط»، وبتوقّف آلة الحرب المدمّرة فيها، مجرّد «غوغائيّين»، مجموعة من «مُعادي السامية»، المتضامنين مع الشرذمة التي انجبتها البشرية من نسل الإنسان الشرقي، مواطن العالم من الدرجة الثالثة، ترمقهم من مكتبها، من خلف نظّارة أُريد لها أن تكون صناعة غربية خالصة، لا تُحسّن رؤية العين بقدر ما تلغيها، وتضع لها منظورًا آخر تحكّم به على العالم.

تقف نعمت الشهيرة بـ«مينوش»، «ابنة الإسكندرية»، في المكان ذاته الذي أفنى فيه إدوارد سعيد عمره، وطرح فيه أفكاره، المتمثّلة بنقد المعرفة الاستعمارية، ذات يوم، وفي الأروقة نفسها التي عرفت صوت وائل حلّاق وهو يُعرّي النفاق الغربيّ: «تتصرّف إسرائيل والغرب وفق منطق أنه ليس وراء الكون أو الطبيعة مُسبّب، فتكون النتيجة المنطقية أنه لا قيمة لنا نحن البشر في أنفسنا إلّا إذا أعطانا إيّاها أحدهم. وبما أنه لا يُمكن أن يكون هذا الشخص إلهاً، فإنّ إنساناً يعطي إنساناً آخر هذه القيمة، استنادًا إلى الذي يكون القرار بيده. وقوّة القرار دائماً ما تكون قوّة بَطْشيّة، وهي قوّة السيف، فقرار الضعيف في يد القوي، أي إنّ الأشدّ بطشاً هو صاحب القرار».

في كلمات دقيقة مختارة بعناية، ومنطوقة بالفطرة والسليقة الخبيرة بالإنسان وعلوم الإنسان، يفكك وائل حلّاق منطق تلك «الثقافة الغربية»، ويُسقِط ورقة التوت الأخيرة التي كانت تستر بها نفسها، خلف التفكير والتحليل والنقد والكتابة والأطروحات، فيُبيّن أصل المشكلة الغربية تجاه «الآخر» سواء كان فلسطينيًا أو أفغانيًا أو فيتناميًا، في أيّ قارّة وإلى أي مكان كان انتماؤه، هو أنه لا يستحقّ تلك الحياة، إلّا إذا اكتسبها من تفضّل سيّده الغربيّ، أما إذا لم يُرد الغربيّ ذلك، فإنّ موته سيكون ترسًا ضروريًا لدوران العجلة الأميركية والأوروبية، كما يريد قباطنتها.

وبهذا المنطق المستنير نفسه، الذي يتحرّر من نير الاستبداد الفكري، خرج الطلّاب في ساحات «جامعة كولومبيا» ينددون بالحرب الإسرائيلية الأميركية الغربية - تسليحًا وتبريرًا - على غزّة، لتُفاجئهم رئيسة الجامعة (منذ تموز/يوليو 2023) من أصل مصريّ، السيّدة نعمت شفيق، ابنة الإسكندرية، وتستدعي لهم قوّات الأمن، لتفضّ اعتصامهم، كأنها عادت بالزمن والمكان إلى حيث تستحقّ، في المنظومة التعليمية المصرية، التي يرأسها ويتحكّم بها ويتوغّل فيها السرطان الأمنيّ، بالعقلية القمعية، تلك العقلية ذاتها التي برّرت اقتحامَ الحرس الجامعي وقوّات الأمن لجامعات «القاهرة» و«الأزهر» و«المنصورة» و«الزقازيق» و«بني سويف» و«السويس» وغيرها في مصر، لتقتل بالرصاص الحيّ جموع الطلّاب، وقادة الحركة الطلابية إبّان الانقلاب العسكريّ في 2013، حيث سُحلت فتيات الأزهر، وسُجنت فتيات الإسكندرية - حيث وُلدت «مينوش» - وقُتل واعتُقل وغُدّب وأُخفي فتية القاهرة وعين شمس وحلوان، ولعلّ أنس المهدي وإسلام غانم ورفاقهما خير إجابة على الأسئلة عن الدليل، ما زالت دماؤهم تنزف هناك في حرم الجامعة، ولتسالوا أيضًا جابر نصار، الأكاديميّ الذي تلطخت يداه بدماء طلّابه.

لكن هيهات، فالدرس هو الدرس، والغبيّ في التاريخ هو الغبيّ، وتلك الحماقة لا تتبدّل وإن تبدّل مرتكبوها وأبطالها، القمع لا يقمع، القمع يُضاعف قوّة المقموع، ويُسمع صوته أعلى، وبالفعل انتقلت الاعتصامات والحركة الطلابية إلى جامعات «ييل» و«هارفارد»، و«كارولينا الشمالية» وغيرها من المؤسسات الأكاديمية في الولايات المتحدة، لتلقّن نعمت والمُنعمين عليها درسًا بليغًا، أنّ غزّة ليست محصورةً على جنوب فلسطين، إنما هي كلمة سرّ في أفواه الأحرار وداعمي القضيّة، وأنّ «السابع من أكتوبر» فعلُ تحرّرٍ يفصل ما قبله عما بعده.

نعمت «مينوش» شفيق في جلسة استماع في الكونغرس بعنوان «كولومبيا في أزمة: رد جامعة كولومبيا على معاداة السامية»، 17 نيسان/ إبريل الجاري (Getty)

نعمت شفيق المُخبِر المحلّي مُنفِّذاً وصايا الغرب

هكذا أسقطت غزّة «الروب» الجامعيّ

فعلُ تحرُّرٍ

القمع لا يقمع، بل يُضاعف قوّة المقموع، ويُسمع صوته أعلى، وبالفعل انتقلت الاعتصامات والحركة الطلابية إلى جامعات «ييل» و«هارفارد»، و«كارولينا الشمالية»، وغيرها من الصروح الأكاديمية في الولايات المتّحدة، لتُلقّن نعمت والمُنعمين عليها درسًا بليغًا، أنّ غزّة ليست محصورةً في جنوب فلسطين، إنما هي كلمة سرّ في أفواه الأحرار وداعمي القضيّة، وأنّ «السابع من أكتوبر» فعلُ تحرّرٍ يفصل ما قبله عما بعده.

تمثيلٌ لعقلية المُخبِر الاصيل المُتنكّر بزيّ جامعي

ما فائدة العلوم الإنسانية إن لم تعلّم الإنسانية؟

حيث وُلدت «مينوش». وقُتل واعتُقل وغُدّب وأُخفي فتية القاهرة وعين شمس وحلوان، ولعلّ أنس المهدي وإسلام غانم ورفاقهما خير إجابة على الأسئلة عن الدليل، ما زالت دماؤهم تنزف هناك في حرم الجامعة، ولتسالوا أيضًا جابر نصار، الأكاديميّ الذي تلطخت يداه بدماء طلّابه.

لكن هيهات، فالدرس هو الدرس، والغبيّ في التاريخ هو الغبيّ، وتلك الحماقة لا تتبدّل وإن تبدّل مرتكبوها وأبطالها، القمع لا يقمع، القمع يُضاعف قوّة المقموع، ويُسمع صوته أعلى، وبالفعل انتقلت الاعتصامات والحركة الطلابية إلى جامعات «ييل» و«هارفارد»، و«كارولينا الشمالية»، وغيرها من المؤسسات الأكاديمية في الولايات المتحدة، لتلقّن نعمت والمُنعمين عليها درسًا بليغًا، أنّ غزّة ليست محصورةً على جنوب فلسطين، وإنما هي طيفٌ يحرّر كل ذلك العالم من أغلاله، وكلمةُ سرّ في أفواه الطيبين لتخليص الدنيا من الأشرار، ولتُبدّل المواقع بين الأساتذة والطلّاب، وتُعيد تعريف المناصب داخل الحرم الجامعيّ، فالأساتذة هُم من يفهمونها «وهيّ طايرة»، وينادون بالحرّية لكلّ إنسان يستحقّها، بينما الطلبة الراسبون هم من يقفون في مكاتب رئيس الجامعة والأقسام المختلفة، لا يفهمون بعد أنه لا فرق بين 33 ألف طفل في غزة، استشهدوا، وبين أمثالهم في أوروبا، أو في أوكرانيا وغيرها، وأن غزّة ليست «إرهابًا» ولا «معاداةً للسامية»، وأنّ «السابع من أكتوبر» لا يمكن حصره في الوصم الغربي الفوقي بتشويه سمعته، وإنما هو فعل تحرّرٍ يفصل ما قبله عما بعده.

الدرس القويّ لنا جميعًا يا ست نعمت، هو أنّ تحدُّث أربع لغات أجنبية، والحصول على جنسيتين أميركية وبريطانية، وترؤّس واحدة من أشهر الجامعات الأميركية؛ قد لا تكون كافيةً أبدًا لتغيير تلك البذرة الأمنية المقرّزة في عقلية المُخبر الأصيل، المتنكّر في «روب» جامعيّ أسود، وأنه لا نفع من كلّ العلوم الإنسانية، إذا لم تُعلّمك طوال ستين عامًا، ما هو تعريف «الإنسان»، وأنه لا فائدة من العلوم الإنسانية، إذا لم تعلّمك «الإنسانية» أوّلًا!

(كاتب مصري مقيم في إسطنبول)

مع غزة

علي رياض

مدينة صغيرة قاتلَها العالم ولم تنكسر

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة، وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء

بغداد ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوان إبادةٍ على غزّة؟

ليس هاجسًا واحدًا في الحقيقة، لكنّ الأشدّ وقعًا هو النفاق العالمي، وأنّ حقيقة خلوّ العالم من الأخلاق إلى هذه الدرجة المُرعبة يجب أن تُلزم كلّ إنسان بإعادة النظر حول ما يحترم ومَن يحترم، بل إنّ الكثير من المتبنّيات والأفكار التي تُعرّف زورًا بالحضارية، هي قشور بالية لا لبّ تحتها.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

بدءاً من شعور بالذنب بشرب كأس ماء بارد نظيف وصولاً إلى كوابيس الحرب نفسها، بعبارة واحدة: أثّر على كلّ شيء.

■ إلى أي درجة تشعر بأن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

رغم قيامي بمحاولات في هذا الصدد، لكن لا أخفيكم، أظنّه غير فعّال إلّا في مجال تسجيل الشهادات وحفظ التاريخ، فهو وثيقة لمن سيأتي غداً، ويُحاول مجدّداً أن يُجمّل وجه الكيان الغاصب كما حدث مرّات عدّة خلال السنوات الستّ والسبعين الماضية.

■ لو قيّض لك البدء من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

المجال النضالي، وربّما دون التخلّي عن المجال الإبداعي، لأنّني أزعم أنّ صنعة الجمال ترتقي في الروح حتى تهيّئها للتخلّي، وأنّ أرواح الشعراء الأعلى والأكثر صخباً هي الأرخص لأصحابها، وهذا ما أظنّه فقط، ولا دليل على كلامي غير ما حفظه التاريخ من شعراء ومُبدعين ثوريّين.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

بمعزل عن توجُّهاتي اليسارية ولأغراض إنسانية وأخلاقية بحتة، سأقول زوال التفوّق الغربي - الرأسمالي. مهما بلغت قسوة الشرق. اليسار بنسخته السوفييتيّة طبعاً، لا اليسار الغربي الليبرالي.

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

شخصيتان: سعدي يوسف، وأقول له: لو أملك ما تملك من صدق لتجاوزتك شعريًا، وإبراهيم طوقان، وأقول له: لو كان الفدائي شاعراً مجيداً لما وصف نفسه بجمال ودقّة وصفك له في قصيدة «الفدائي».

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟

مهما اختلفت الروايات التي سيرويها التاريخ، فإنّ حقيقة واحدة سيقولها العدوّ والصديق: إنّ مدينة صغيرة قاتلها العالم، ولم تنكسر، وإنّ موتًا زار أهلها واستقبلوه واقفين. لقد دار الإعصار على راحة أيديكم، وعندما خلع نوافذ بيوتكم، وسلب سقوفها فتحت عيونكم لنا نوافذ كالمرايا ظهرنا فيها غرباءً تتدلّى بطوننا دون أن تستر عوراتنا، وينكّس رؤوسنا العجز والخوف والكسل في انعكاسنا الباهت على فضّتها. طوبى لكم! أنتم التاريخ والباب والنافذة، وأنتم الضوء في قنديل الحرّية والصمود.

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

إن لم تشعر بالعار بعد كلّ هذا فأنت ميت، ولا عزاء لك.

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان، ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيجبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي». ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟

يا عمّاه «طزّ» بكلّ لعبة لم تلعبي أنت فيها، و«طزّ» بكلّ ضحكة لم يرسمها وجهُك الجميل، و«طزّ» بكل دقيقة عشتِها حزينة. يا عمّاه نحن أعمام عاقّون خذلناكم وخذلنا فلسطين، فليُسامحنا الله ويرحمكم.

أفقنا على حقيقة خلوّ العالم من الأخلاق إلى هذه الدرجة المُرعبة

علي رياض

بطاقة

شاعر وصحافي عراقي مُقيم في بغداد، من مواليد عام 1993. صدرت له ثلاث مجموعات شعرية: «حين استيقظتُ مبّتاً» (2014)، و«عالم الغرباء» (2016)، و«انفصال» (2023). كما له عدد من المقالات والتقارير المنشورة في الصحافة العراقية والعربية.

إطلالة

حكايةٌ مهيمنة على الواقع أكثر من النصوص

الإمبراطور العاري

لا يزال العشرات من الاباطرة الطغاة يمشون عراة، والناس يعجبون بهم، وفي الغالب فقد اختفى الصبي الذي واجهه بالحقيقة، او أخفي بالقوّة

معدوح عزام

يمكن لشخصية الإمبراطور في الحكاية الشهيرة «ثياب الإمبراطور الجديدة» لـ هانز كريستيان أندرسن أن تكون الشخصية الأكثر حضوراً في عالم الفنّ والواقع. وعلى الرغم من أنّ كثيرين قد نافسوه على الصدارة، فقد بقي في القمّة باستمرار. تسرق الأضواء منه شخصية هنا، أو شخصية هناك، ولكن الإمبراطور العاري سرعان ما يعود من جديد ليتبوّأ المركز الأوّل؛ فالرجل يمتلك أغلب السمات التي تؤهّله لاحتلال هذا الموقع، بما يملكه من حضور شبه أبدي في الحياة البشرية، حيث يستمرّ في طبيعته، يُقتل دون حساب كلّ من يتجرّأ على قول الحقيقة، وربّما يكون قد تواطأ مع النسّاجين، اللذين تصفعها القصّة بالدجالين، لصناعة هذا الزيّ، كي يُصفّي معارضيه، إلى أن يأتي ذلك الطفل، والحكاية تُعرف كيف تختار من يقول الحقيقة، ليقول له إنّه عارٍ لا يرتدي أيّ ملابس.

والفارق بينه وبين الشخصيات الأخرى التي قدّمها الأدب طوال تاريخه، أنّ المعنى في تلك الشخصيات لم يكن كامناً في وجودها، بل في القراءة التي تُضفي عليها ما شاءت من المعاني والتفسيرات، كما هو حال شخصية هملت، أو الملك لير، أو راسكولنيكوف، أو أيّة شخصية يمكن اختيارها من تاريخ الأدب، لدى كلّ الشعوب، بينما لا يحتاج الإمبراطور في قصّة أندرسن لقراءات، لأنه موجودٌ في النصّ وحسب، بل لأنّ حضوره في الواقع مستمرّ، بل هو مهيمنٌ على الواقع أكثر من هيمنته على النصوص.

واللافت أنّ البشرية شهدت تناسلاً لهذه الشخصية في معظم المستويات، فضلاً عن الأب وزعيم العشيرة، ظهرت في العصر الحديث شخصية القائد الحزبي. كان قادة الأحزاب الذين ادّعوا تمثيل الشعب قد أعلنوا أنفسهم أباطرة. ولكنّهم كانوا عراة أيضاً، وظلّوا يعيشون، ويرغمون أتباعهم، على مديح ثوب العظمة غير الموجود، وبعض هؤلاء ظلّوا في مناصبهم طوال حياتهم، في واحدة من أبشع ممارسات عبادة الفرد، دون أن يوجد من يجرؤ على أن يقول لهم إنّهم عراة.

لا تحضر شخصية الإمبراطور في القصّة، وفي الواقع، إلّا برفقة شخصية التابع؛ إذ يقدّم الوزير تقريراً مؤثّراً عن جمال ثياب لا وجود لها، ويؤكّد المبعوث الثاني رأيه، ومن الصعب أن يوافق الإمبراطور على ارتداء الثياب الجديدة، دون مدائح التابعين، غير أنّ التابع نفسه إنّما يبالغ في المديح، أو في الكذب، بما يوافق الحاكم. أمّا الطفل الذي لاحظ أنّ الإمبراطور عار، فقد أعلن الحقيقة بفضل براءته، لا شجاعته، بينما تظهر شجاعة قول الحقيقة لدى الناس الذي أيقظتهم جملة الصبي.

قال البرتو مانغويل إنّ البشرية تحتفي بجملة الصبي، ولكن أحداً لا يسأل عن مصير هذا الصبي بعد أن نطق الحقيقة. صحيحٌ أننا لا نعرف ماذا فعلوا به، ولكنّنا يمكن أن نخمّن. فلا يزال العشرات من الأباطرة الطغاة يمشون عراة، والناس يعجبون بهم، وفي الغالب فقد اختفى الصبي، أو أُخفي بقوّة القهر المستقرّة لدى الشخصيتين، شخصية الملك، وشخصية التابع.

عالم الإنسان، منذ بداية التاريخ، محكوم بهذه المعادلة الغريبة التي تريد فيها القوّة أن تبقى، وتسعى الحقيقة فيها لأن تقول.

(روائي من سورية)

معادلة غريبة تريد فيها القوّة ان تبقى والحقيقة ان تقول

من تجهيز فني مستوحىً من قصّة «ثياب الإمبراطور الجديدة»، برلين، 2014

فعاليات

تُفتتح، عند الثالثة من بعد ظهر اليوم الجمعة، في مدينة الحمّامات التونسية النسخة الاولى من **المهرجان الدولي للثقافة والفنون**، التي تتواصل حتى مساء الاحد المقبل. تحمل الدورة اسم الشاعر التونسي **محمود بيرم التونسي** (1893 - 1961)، حيث يُخصَّص معرض وثائقي لسيرته الشخصية وابرز اعماله.

تنطلق، عند التاسعة من صباح بعد غد في الدوحة، اعمال مؤتمر **المؤسّسات والتنمية في الدول العربية: التحدّيات والفرص** الذي ينظّمه **المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات** بالشراكة مع **المعهد العربي للتخطيط** بالكويت، ويتواصل لثلاثة أيام. يشارك في المؤتمر 37 باحثًا يناقشون الإصلاح المؤسّسي، وقضايا الابتكار والتكنولوجيا، والعمران والحقّ في المدينة، وغيرها.

عند الثانية عشرة من ظهر غدٍ السبت، تنطلق **المظاهرة الوطنية من اجل فلسطين** من ميدان البرلمان في لندن، حيث يتوجّه المتظاهرون نحو «هايد بارك». ترفع المظاهرة، التي تنظّمها **حملة التضامن مع فلسطين في المملكة المتحدة** كلّ سبت، شعاراً اساسيا يطالب بوقف تسليح الحكومة البريطانية لـ«اسرائيل».

حتى الثلاثين من الشهر الجاري، تتواصل في مدينة الإسكندرية فعاليات الدورة العاشرة من **مهرجان الإسكندرية للفيلم القصير**، التي افتتحت مساء امس الخميس. يضمّ البرنامج محاضرات عدّة، منها: «كيفية عمل المنتج على فيلمه»، و«كيفية تحضير مصمّم المناظر للعمل»، و«كيفية تحضير الممثّل لشخصيته مسرحيا وسينمائيا».